سياسة الاحتلال الفرنسي تجاه اللغة العربية والهوية الوطنية خلال القرن التاسع عشر الميلادي وموقف الطرق الصوفية منها

مقدمة:

بمجرد أن تمكن المحتل الفرنسي من السيطرة على مدينة الجزائر في 05 جويلية 1830م، حتى شرع في التوسع إلى مختلف مناطق الوطن وهنا جوبه بمقاومة شعبية عنيفة أعاقت سيرورة مخططاته ومشاريعه الإستعمارية، وجعلته يدرك أن هذا الشعب متمسك أشد التمسك بهويته الوطنية وبثقافته العربية الإسلامية، وهذا ما جعل هذا المحتل الغاصب يلجأ إلى تجنيد كل خبرائه وضباطه ممن كانت لهم دراية كافية بالدين الإسلامي واللغة العربية ويضع تحت تصرفهم كل امكاناته المادية حتى يقوموا بدراسة المجتمع الجزائري ومختلف مكوناته والولوج إلى عقليته لمعرفة مداخيل التأثير فيه وأسباب حبه لوطنه، حتى يسهل على هذا المحتل البدء في تنفيذ استراتيجيته التدميرية لمقومات الثقافة الجزائرية التي تقوم على الدين الإسلامي واللغة العربية والهوية الوطنية. وهنا يطرح الإشكال التالي:

كيف كان موقف الطرق الصوفية من السياسة الاستعمارية تجاه اللغة العربية والهوية الوطنية في الجزائر خلال القرن التاسع عشر الميلادي؟

تكمن أهمية الموضوع فيمايلي:

ـ يميط اللثام عن جرائم الاحتلال الفرنسي ضد مقومات الهوية الجزائرية كالدين الإسلامي واللغة العربية.

ـ يطلع القارئ والباحث على الأساليب الإجرامية والوسائل ألا أخلاقية التي استخدمها المحتل الفرنسي للقضاء على اللغة العربية والهوية الوطنية للجزائريين.

ـ يبرز أسلوب الاحتلال الفرنسي في التعامل مع المؤسسات الثقافية والعلمية والدينية للجزائريين.

ـ يبين موقف أغلبية الجزائريين من السياسة التعليمية الفرنسية.

ـ يبين مدى تشبع الجزائريين بالروح الوطنية وتمسكهم بهويتهم الثقافية العربية الإسلامية.

ـ يبرز بشكل جلي دور المؤسسة الصوفية في إفشال المشروع الاستعماري الهادف إلى القضاء على اللغة العربية والهوية الوطنية.

ـ يبرز الطرق والأساليب التي استخدمتها المؤسسة الصوفية في الحفاظ على اللغة العربية والهوية الوطنية.

أما الأهداف التي سعينا لتحقيقها من خلال هذه الورقة البحثية تمثلت في ما يلي:

ـ افساح الطريق أمام القراء والباحثين للغوص في دراسة تاريخ نضال الشعب الجزائري ضد المحتل الفرنسي.

ـ افساح الطريق أمام القراء والباحثين للغوص في دراسة التاريخ الثقافي للشعب الجزائري ابان فترة الاحتلال الفرنسي.

ـ استخلاص ومقارنة مفاهيم وقيم المؤسسة الصوفية وتحديد دورها في الحفاظ على اللغة العربية والهوية الوطنية للجزائريين.

ـ تأكيد الرأي القائل أن السياسة التعليمية الفرنسية هي سبب تفشي ظاهرة الجهل والأمية بين أغلب الجزائريين خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

فيما يتعلق بالمنهج المتبع هو المنهج التاريخي الذي يصف ويتتبع الأحداث بالاعتماد على المصادر والمراجع المتخصصة في هذا المجال.د

للإجابة على الاشكال المطروح أنفا ولتحقيق أهداف الورقة البحثية قررنا أن يتم عرض الموضوع من خلال العناصر التالية:

1 ـ السياسة الفرنسية تجاه اللغة العربية ومقومات الهوية الوطنية:

في بداية الاحتلال الفرنسي أشارت عديد التقارير إلى أن اللغة العربية وثقافتها كانت منتشرة في مدن الجزائر وأريافها بشكل واسع، وهذه الوضعية لم ترح إدارة المحتل التي اعتبرت أن وجود ثقافة وديانة وتقاليد مغايرة لحضارتها يحول دون بسط النفوذ الفرنسي وإدماج الجزائر[1]، لذلك ما إن استتب الأمر لهذا المحتل حتى قامت إدارته بالتخطيط لضرب مقومات الهوية الوطنية في محاولة منها لخلق واقع رافض للانتماء الحضاري العربي الإسلامي[2]، فعملت كل ما في وسعها لإضعاف اللغة العربية وإزالة المعالم الثقافية للهوية الوطنية الجزائرية تمهيدا لإدماج الشعب الجزائري في المجتمع والحضارة الفرنسية، وارتكزت السياسة التعليمية الفرنسية في البداية على محاربة اللغة العربية والمؤسسات الدينية الإسلامية ممثلة في الأوقاف والمساجد والزوايا والطرق الصوفية[3].

1 ـ 1: محاربة اللغة العربية:

سعيا من سلطة الاحتلال الفرنسي لقمع اللغة العربية قامت باعتماد سياسة التعليم الممنهج ومنع المدارس العربية من منافسة المدارس الفرنسية، وذلك من خلال تقليل نسبة التحصيل العلمي للجزائريين

---

[1] عبد الله مقلاتي، **المشروع الفرنسي الصليبي الاحتلالي للجزائر وردود الفعل الوطنية 1830 ـ 1962**، منشورات سيدي نايل، الجزائر، 2013م، ص.149

[2] ناصر الدين سعيدوني، **الجزائر منطلقات وآفاق**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 2000، ص.83

[3] عبد الله مقلاتي، **المرجع السابق**، ص.149

في مختلف أطوار التعليم الأربعة ففي المستوى الأول كان يتم تحفيظ بعض قواعد اللغة العر بية، وفي المستوى الثاني لا يتجاوز بعض القصص مثل "السندباد" و"ألف ليلة وليلة"، وفي المستوى الثالث التعريب والتعجيم، أما في التعليم الجامعي للغة والأدب العربي فكان يتم تحصيله باللغة الفرنسية[1].

كما شرعت سلطة الاحتلال الفرنسي في استبدال التعليم العربي بالتعليم الفرنسي وغايتها من وراء ذلك القضاء على اللغة العربية وقد عبرت عن ذلك صراحة في رسالة الدوق دي زوفيقو Duke De Rovigo إلى وزير الحربية الفرنسي، فقد جاء فيها " إن الجزائر لن تكون حقا فرنسية إلا إذا أصبحت فيها اللغة الفرنسية هي اللغاة السائدة "[2].

لم تكتف سلطة الاحتلال الفرنسي بهذه الاجراءات ضد اللغة العربية بل أثارت أيضا المسألة البربرية في محاولة منها تمزيق المجتمع الجزائري على أسس عرقية وإضعاف اللغة العربية ثم القضاء عليها نهائيا لكونها لغة جامعة بين مختلف مكونات المجتمع الجزائري، وباعتبارها لغة الإسلام ابلذي لعب دورا محوريا في افشال كل المشاريع الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وفي اجهاض التنصير والفرنسة والتجنيس والإدماج[3].

1 ـ 2: مصادرة أملاك الأوقاف:

لما كانت الأوقاف والصدقات تلعب دورا هاما في انتشار المدارس ونشر التعليم، فكان هناك أملاك خاصة وعقارات وأراضي يذهب ريعها لبناء المدارس وتوظيف المعلمين وتوفير المساكن للطلبة، فإن الإدارة الفرنسية قامت بمصادرة كل الأملاك التابعة للأوقاف بموجب قراري (كلوزيل Clauzel) 8 سبتمبر و7 ديسمبر 1830م التي كانت من أهم الموارد المالية للمؤسسات التعليمية والهدف من وراء هذه السياسة هو شل الحركة التعليمية، كما أصدر الجنرال (بيجو Bugeaud) قرارا في 23 مارس 1846م ينص على ضم الأوقاف إلى إدارة الدومين حتى تكون تحت سيطرة موظف فرنسي سام[4].

---

[1] سميرة مولاي، " مظاهر الغزو الثقافي للاستشراق الفرنسي إبان احتلال الجزائر "، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، المجلد 17، العدد 02، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران1، الجزائر، جوان 2021، ص ـ ص، 344 ـ 364

[2] سميرة مولاي، **المرجع نفسه**.

[3] هزرشي بن جلول، " الاستشراق والاحتلال الفرنسي للجزائر .. أية علاقة "، **مجلة المفكر**، المجلد الثامن، العدد الأول، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م، ص ـ ص، 196 ـ 206

[4] سميرة مولاي،**المرجع السابق.**

1 ـ 3: هدم المساجد أو تحويلها عن طابعها الديني الإسلامي:

قامت سلطة الاحتلال الفرنسي بهدم أغلب المساجد وأغلقت الباقي أو حولتها إلى كنائس وثكنات وإسطبلات ومستوصفات، ومقرات إدارية، فمدينة الجزائر لوحدها كان بها غداة الاحتلال الفرنسي لها سنة 1244هـ/1830م ما يزيد عن 160 مسجدًا وزاوية، ولم يبقى منها أواخر القرن التاسع عشر ميلادي سوى بضعة مساجد لا تصل حتى إلى عشرة[1].

1 ـ 4: مراقبة الزوايا وتضييق الخناق عليها:

لقد تفطن خبراء الاحتلال الفرنسي منذ وقت مبكر لدور الزوايا في نشر التعليم واللغة العربية والحفاظ عليهما وعلى الهوية الوطنية الجزائرية، كما تفطنوا لدورها البارز في المقاومة الوطنية، وأدركوا أهميتها الكبرى في تأجيج الانتفاضات والثورات ضد السلطة الفرنسية، حيث كلفت اللجنة العلمية حول المقاومة الجزائرية أحد أعضائها وهو النقيب إدوارد دونوفو Edward de noveu بدراسة تنظيم الزوايا والطرقية[2]، وقد توصل في بحثه الذي نشره سنة 1259هـ/1845م بعنوان الإخوان Khouans إلى أن الزوايا هي مراكز للتآمر ـ حسب رأيه ـ وإشعال فتيل التمرد، وهي معادية للوجود الفرنسي وتحظى بكثير من الاحترام والتقدير بين الجزائريين[3]، وعليه رأت السلطة الفرنسية أن تضييق الخناق هو الوسيلة العملية للسيطرة عليها[4]، ومراقبتها وجمع أكبر قدر من المعلومات عن نشاطها الداخلي وعلاقتها بمحيطها المباشر[5].

لتحقيق هذا الغرض طلبت هذه السلطة من جميع موظفيها المدنيين والعسكريين لاسيما ضباط المكاتب العربية، إفادها بمعلومات عن هذه الزوايا تتضمن وصف لها واثبات صورتها، وتاريخ تأسيسها وهل تؤدي أيضا دور ووظيفة المدرسة، وهل فيها مسجد للصلاة، وهل هي مؤسسة اجتماعية للاحسان وإيواء الفقراء والمحتاجين، وعابري السبيل والضيوف. وأما شيوخها فلابد من تقديم جملة من البيانات والمعلومات عنهم تمس حتى العظم والمخ، تبدأ بمعلومات شخصية مع وصف دقيق لحياتهم ومؤهلاتهم

---

(1) يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، دار الهدى، عين ملية ـ الجزائر، 2009، جـ.1، ص.224

(2) محمد العربي ولد خليفة، **الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم**، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص.236

(3) إدوارد دونوفو، **الإخوان دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر**، ترجمة وتحقيق: كمال فيلالي، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عيم مليلة ـ الجزائر، 2003، تقديم الكتاب، ص-ص.72-73

(4) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار البصائر، الجزائر، ط.6، 2009م. جـ.4، ص.287

(5) محمد العربي ولد خليفة، **المرجع السابق**، ص.237

وصفاتهم، وأملاكهم بالإضافة إلى صورهم، ثم يأتي بعد ذلك الإفصاح عن تأثيرهم الديني في الداخل والخارج[1]، ويمكن أن نستشهد هنا بذلك الملف الذي عثرنا عليه في أرشيف ما وراء البحار بمرسيليا، ويخص الزاوية القاسمية بالهامل وهو يتضمن معلومات جد دقيقة عن هذه الزاوية، وعن لالا زينب التي تولت مشيختها من 1311هـ/1897م إلى 1318هـ/1904م بعد وفاة والدها المؤسس محمد بن أبي القاسم الهاملي، كما يتضمن الملف أيضا صورتين إحداهما للزاوية والأخرى للسيدة لالا زينب[2].

لم تكتف السلطة الفرنسية بهذه الإجراءات، بل قامت بمنع الزوايا من نشر التعليم العام، وفرضت عليها برنامج ضيق لا يتعدى تحفيظ القرآن الكريم دون تفسيره، أو تعليم قواعد اللغة وأصول الدين دون فهم، وأنشأت المدارس الفرنسية في المدن ثم الأرياف لتسحب التلاميذ من الزوايا[3]، كما فرضت على مدارس الزوايا المرخص لها بالتدريس أن لا تفتح أبوابها للتلاميذ خلال أوقات الدراسة الرسمية في المدارس الابتدائية الفرنسية[4]، وأكثر من ذلك اشترط مرسوم 18 أكتوبر 1306هـ/1892م الذي أدمج تعليم الزوايا في المدارس الابتدائية الفرنسية، أن يكون لكل زاوية سجل تسجل فيه أسماء التلاميذ وعائلاتهم، ومحل إقامتهم وتاريخ ميلادهم بنفس الطريقة التي تعمل بها المدارس الفرنسية[5].

لكن أخطر ما في الأمر أن هذه السلطة أصبحت تتدخل حتى في تعيين شيوخ بعض الزوايا، دون مراعاة الشروط العلمية والدينية التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى مشيخة الزاوية[6]، وحتى أولئك الذين ينتخبهم أتباعهم أو يوصي بهم من سبقهم قبل وفاته، فلابد عليهم أن ينالوا موافقة ورضى هذه السلطة، وإلا سيصبحون من المغضوب عليهم، وقد لا يدوم بهم الحال طويلا في مناصبهم.

---

(1) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ.4، ص-ص.313-314

(2) A.O.M (G.G.A) 16H61.

من يشاهد تلك الصورة الفوتوغرافية التي أخذتها السلطات الفرنسية للشيخة لالا زينب وهي جالسة في محل إقامتها وتمسك بسبحة في يدها اليمنى وبمروحة في يدها اليسرى، سيدرك أن هذه المرأة العالمة الجليلة ستظل راسخة في ذهنه وتتراءى أمام بصره بحدة نظرتها وقوة حظورها ومكانتها في المجتمع، وبلباسها الجزائري التقليدي الأصيل المستمد من الدين والتراث الإسلامي والموروث الصوفي. ينظر:
A.O.M (G.G.A) 16H60

(3) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ.3، ص.173

(4) شارل روبير أجرون، **الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919**، نقله إلى العربية م. حاز مسعود وأ. بكلي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007، جـ.1، ص.569

(5) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ.3، ص.176

(6) مزيان سعيدي، **السياسة الاستعمارية في منطقة القبائل ومواقف السكان منها (1871هـ ـ 1914م)**، دار سنجاق الدين للنشر والتوريع، د. ب، ط.1، 1431هـ/ 2010م، جـ.2، ص.182

عليه نجد أن إخوان الطريقة الحنصالية في قسنطينة، قد تقدموا سنة 1309هـ/1895م بطلب إلى السلطة الفرنسية لكي توافق على تعيين أحد إخوان الطريقة والمسمى ابن الشيهب أحمد بن دحمان في منصب قيم على الزاوية الحنصالية بقسنطينة، خلفًا للمسمى حبيباتني الطاهر بن الشهيب الذي بلغ به الكبر عتيًا، ونال منه المرض وأصبح غير قادر على أداء مهامه في الزاوية[1].

في سنة 1310هـ/1896م توفي أحمد بن الكبير بوحجاجة شيخ الزاوية الكرزازية المتواجدة في الجنوب الغربي للجزائر، فبادر خليفته عبد الرحمان بن محمد بإخطار الجنرال الفرنسي حاكم العين الصفراء بالوفاة وتوليه مشيخة الزاوية خلفا للمرحوم، وتعهد له بأن يبقى وفيًا للفرنسيين وأن يتبع سيرة سلفه وسياسته معهم[2].

قبل وفاة محمد بن أبي القاسم الهاملي شيخ زاوية الهامل، كانت السلطات الفرنسية تلح عليه لكي يقوم بتعيين خليفته، وكانت تقصد ابن أخيه الحاج محمد بن بلقاسم، وقد رضخ لطلبها تحت الضغوط وكتب وصية بعث بها إلى رئيس المكتب العربي في بوسعادة، تنص على أن ابن أخيه الحاج محمد هو خليفته، لكن ابنته لالا زينب اعترضت على هذه الوصية بعد وفاة والدها، وقالت إن السلطات الفرنسية قد استصدرتها من والدها تحت الضغوط، وهو في حالة لا يملك معها قواه، ودخلت في نزاع مع رئيس المكتب العربي، ومع ابن عمها إلا أنها استطاعت أن تنتصر عليهما في نهاية المطاف، وتتولى هي مشيخة الزاوية التي أدارتها بنجاح إلى غاية وفاتها سنة 1318هـ/1904م[3].

قد سبق للسلطة الفرنسية أن مارست سياسة شد الخناق على رقبة شيوخ الزوايا منذ وقت مبكر ولم تميز في ذلك بين من هو عدو ومن هو صديق، فمثلا نجدها شددت المراقبة على الشيخ الشارف ولد الجيلاني عبد الله بن طكوك الذي كان يتولى مشيخة الزاوية السنوسية بمستغانم، وقامت باعتقاله عدة مرات، وسجنته عدة سنين كانت إحداها سنة 1290هـ/1876م بعد أن استولت على كل ما هو موجود في زاويته بحجة تورطه في عملية اغتيال، وتخزينه أسلحة داخل هذه الزاوية، لتتراجع فيما بعد وتقول أنه برئ

---

(1) جميلة معاشي، **الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية بقسنطينة من خلال سجل مراسلات لجنة الشؤون الدينية (1885 ـ 1904م)**، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة ـ الجزائر، ط.1، 1433هـ/ 2012م، ص.129

(2) Louis Rinn, **Marabouts et Khouan**, p-p.342-348 ; Octave Depont et Xavier Coppolani, **Op.cit**, p.502

(3) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.4، ص.163

دون محاكمة[1]، وقد كانت تفعل معه كل هذا لكونه ينتمي لطريقة تعتبرها هذه السلطة عدوة لها، وتشكل خطرًا على كيانها.

لكن في الوقت ذاته نجد أن هذه السلطة قد قامت بفرض الإقامة الجبرية على حليفها من أولاد سيدي الشيخ الخليفة حمزة حامل بركة جده والشيوخ المتسلسلين منه، وقد كان موظفًا عندها على مساحات شاسعة وقبائل كثيرة، وظل في الإقامة الجبرية بوهران إلى أن توفي، مما جعل زوجته وأولاده منها يتهمون هذه السلطة بقتله غدرًا[2].

قد فعلت الشيء ذاته مع شيوخ الزاوية التجانية في عين ماضي وهم حلفاؤها وأقرب المقربين إليها، فقد غضبت على سيدي أحمد التجاني وأخيه البشير بعد أن استقبلا في عين ماضي سنة 1283هـ/1869م زعماء ثورة أولاد سيدي الشيخ ومنهم الشيخ الأعلى، فاستدعتهما إلى العاصمة وسجنتهما هناك ثم قامت بنفيهما إلى فرنسا سنة 1284هـ/1870م وفرضت عليهما الإقامة الجبرية في مدينة بوردو، ولم تسمح لهما بالعودة إلى الجزائر إلا في سنة 1286هـ/1872م بعد أن تزوج سيدي أحمد الفرنسية أويلي بيكار Aurélie Picard. ورغم اجتهاد سيدي أحمد وتفانيه في إظهار مودته للفرنسيين وتعاونه معهم، إلا أنه ظل محل شك لدى السلطة الفرنسية التي لم تصدق براءته، فاستدعته مرة ثانية إلى مدينة الجزائر للإقامة فيها بعض الوقت، بعد أن ظهرت إشاعة مفادها أنه متورط في ثورة الشيخ بوعمامة، لكن سرعان ما ثبت لهذه السلطة أنه بريء فأطلقت سراحه[3].

1 ـ 5: محاربة الطرق الصوفية:

1 ـ 5 ـ 1: التضييق على الشيوخ:

قامت إدارة المحتل الفرنسي بتسليط العقاب على رجال الدين لاسيما شيوخ الزوايا والطرق الصوفية بصفتهم حماة ورعاة أسس الهوية الوطنية الجزائرية من ثقافة دينية إسلامية ولغة عربية وغيرهما، ولكونهم وقفوا في وجه المحتل وأبدوا مواقف بطولية، رافضين كل الرفض غطرسته وهمجيته، فخربت وهَدَّمَتْ زواياهم[4]، ووضعت حدا لنشاطهم الديني والثقافي، وسجنت بعضهم ونفت آخرين إلى مناطق نائية

---

(1) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية 1860 ـ 1900**، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط.6، 2009م، جـ.1، ص.325.

(2) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، جـ.1، ص.323.

(3) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ.4، ص–ص، ص.212–213، 216

(4) ناصر الدين سعيدوني، **الجزائر منطلقات وآفاق**، ص.83.

ومعزولة داخل الوطن وخارجه، وفرضت على أتباعهم مراقبة شديدة ودائمة، وأرغمت بعضهم على الجوسسة لصالح السلطة الأمنية الفرنسية[1].

حتى أولئك الشيوخ الذين التزموا الحياد ولم ينخرطوا في صفوف المقاومة الوطنية، تعرض أغلبهم ـ إن لم نقل كلهم ـ إلى التضييق والمتابعة، وأصبحوا تحت المراقبة المشددة للإدارة الفرنسية[2]، التي لاحقتهم وتابعتهم قضائيًا في كثير من الأحيان، بحجة إشرافهم وإنشائهم لمؤسسات دينية بدون ترخيص من السلطة الفرنسية، وهو ما كان سببًا في مصادرة أملاكهم الوقفية كالأراضي الزراعية والمتاجر التي كانت تمول تلك المؤسسات[3].

بعد ثورة 1285هـ/1871م اعتقدت سلطة الاحتلال الفرنسي أن شيوخ الزوايا والطرق الصوفية قد حلوا في الأهمية عند الأوساط الشعبية الجزائرية، محل الأجواد وزعماء العشائر نتيجة ضعف هؤلاء من جراء قانون الأرض سنة 1277هـ/1863م–1287هـ/1873م وما يعرف بعهد المملكة العربية، وأن استقلال هؤلاء الشيوخ عن الإدارة الفرنسية ورفضهم العمل عندها، يعد خطرًا كبيرًا ويجعلهم محل الشك والريبة في ولائهم لها[4]، ولذلك قررت هذه السلطة مراقبتهم عن قرب، وعن كثب بالتحكم في مداخيلهم المادية، ومنعهم من التنقل أو جمع الصدقات وأموال الزيارات إلا بترخيص منها، والغرض من ذلك هو إشعارهم بتبعيتهم لها[5]، وللحصول على هذا الترخيص لابد على هؤلاء الشيوخ أن يتقدموا بطلب إلى الجهات المعنية، يذكرون فيه الهدف من الزيارة بدقة تامة، ويحددون خط السير مع التزامهم بضرورة المرور بالجزائر العاصمة[6]، وتتولى هذه الجهات بدورها النظر في هذا الطلب ثم تبدي رأيها بالموافقة أو الرفض، وغالبا ما تكون الإجابة بالرفض لاسيما إن كان صاحب الطلب من غير المقربين من السلطة، أو من المشكوك في أمرهم ونواياهم.

كما أن هناك أطراف أخرى قد تتدخل وتمنع السلطة من منح الترخيص، مثلما حدث مع الحاكم العام شانزي Chanzy سنة 1292هـ/1878م حينما ضغط عليه نواب الكولون ومنعوه من إعطاء

---

(1) يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، جـ.1، ص.224

(2) ناصر الدين سعيدوني، **الجزائر منطلقات وآفاق**، ص.84

(3) يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، جـ.1، ص.224

(4) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ.4، ص–ص.325–326

(5) شارل روبير أجرون، **المرجع السابق**، جـ1، ص–ص.262–263

(6) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ.4، ص.326

الامتيازات لشيوخ الزوايا والطرق الصوفية، عدا شيخ الطريقة التجانية بزاوية تماسين الذي تقرر إعفاؤه دون غيره من هذا المنع، بدعوى أن نفوذه وتأثيره يخدم القضية الفرنسية في الجزائر وخارجها[1].

ومع هذا التضييق والتشديد ومنع جمع الزيارات كان من الطبيعي جدًا أن نجد أغلب الشيوخ، يلجئون إلى طرق وحيل خفية للإفلات من رقابة الإدارة، والقيام بعملية جمع الأموال والصدقات، وإن كانت هذه الطرق والحيل في أغلبها مكشوفة ومعلومة لدى سلطة الاحتلال، التي تغض الطرف وتتسامح في بعض الأحيان[2]، لاسيما مع من لا يثيرون حفيظتها ولا يشكلون عليها خطرًا.

قد لعب الجواسيس دورًا كبيرًا في كشف تلك الأساليب والحيل الخفية التي كان يستعملها من يجمع الزيارات من دون ترخيص، وكمثال على ذلك نجد أن في سنة 1313هـ/1899م، قام المسمى أحمد بن الحاج إبراهيم الشابي المقيم في توزر بتونس، بإخطار الحاكم العسكري الفرنسي في خنشلة بالجزائر عن قدوم المسمى عمار بن عمارة الشابي من توزر بتونس إلى جبال ششار بخنشلة، بغرض جمع الزيارات بلا تسريح ـ بلا رخصة ـ وهذا بأمر من المسمى سي سعيد بن عمار، لأن هذا الأخير صدر في حقه أمر من قبل السلطات الفرنسية بعدم دخوله إلى عمالة قسنطينة، وهو ما جعله يرسل مكانه عمار بن عمارة الشابي[3].

أما الشيوخ الذين تربطهم علاقات جيدة بالسلطة الفرنسية، ويحسنون بها الظن ويعتقدون أنها ستوافق على طلبهم وترخص لهم بجمع الزيارات، فكانوا يتقدمون بطلبهم وينتظرون الموافقة مثلما فعل أحمد بن محمد بن أحمد التجاني شيخ زاوية عين ماضي الذي بعث برسالة سنة 1294هـ/1880م إلى الحاكم العسكري الفرنسي بالمدية، يعلمه فيها أنه طلب من الضابط السامي في الأغواط الترخيص له لبعث ثلاثة أشخاص من أحباب طريقته لكي يقوموا بجمع غلة أملاك الزاوية[4]، وكذلك فعل أحمد بن عمر بن علي بن عمر أخ شيخ زاوية طولقة وتقدم بطلب إلى الحاكم العام الفرنسي بمدينة الجزائر سنة 1302هـ/1888م، لكي يرخص لابنه لزيارة أعراش الجلفة والأغواط، ويُذَكرُهُ بأنه وعائلته خدام الدولة

---

(1) شارل روبير أجرون، **المرجع السابق**، جـ.1، ص–ص.563–564

(2) شارل روبير أجرون، **المرجع نفسه**، جـ.1، ص.563

(3) ينظر: **A.O.M (G.G.A) 16H3**

الغريب في الأمر هو أن المعلومات الواردة في هذا الإخطار تعد سرية، وتستوجب أخذ كل الحيطة والحذر عند إرسالها للجهات المعنية، وهذا حتى لا يفتضح أمر هؤلاء الجواسيس المتعاونين مع سلطة الاحتلال الفرنسي، مما قد يعرض حياتهم للخطر، إلا أن هؤلاء الجواسيس كانوا يبلغون هذه السلطة عن كل صغيرة وكبيرة عن طريق البريد العادي !. ينظر: **A.O.M (G.G.A) 16H3**

(4) **A.O.M (G.G.A) 16H3**.

الفرنسية ومحسوبين عليها[1]، ونعتقد أن في هذا التذكير نوع من الاستعطاف حتى يوافق على طلبه ولا يرفضه.

قد ألحقت هذه السياسة الاستعمارية المتشددة اتجاه أتباع التيار الصوفي، أضرارًا مادية جسيمة ومعتبرة بأغلب شيوخ الزوايا والطرق الصوفية إلى درجة أضحى بعضهم غير قادر على تلبية متطلباته المعيشية، مما اضطره إلى رهن أملاكه، وبذلك يكون قد فقد سنده المادي الذي هو مصدر نفوذه لدى أتباعه الذين لم تعد لهم معه زيارات دورية، مما أدى بمرور الوقت إلى فتور العلاقة بين الطرفين، وتسبب في تسيب الأتباع وتشتتهم بعد ضعف الرابطة الروحية التي كانت تجمع بينهما[2].

1 ـ 5 ـ 2: توظيف الطرق الصوفية وتدجينها:

لقد أدركت السلطة الفرنسية بعد مرور أربعة عقود من احتلالها للجزائر، أن رؤساء وشيوخ الطرق الصوفية قد حلوا في الأهمية محل الأجواد وزعماء العشائر، نتيجة ضعف هؤلاء من جراء قانون الأرض سنة 1277هـ/1863م–1287هـ/1873م وما يعرف بعهد المملكة العربية[3]، وأن الطرق التي تعرضت للتنكيل والاضطهاد كالطريقة الرحمانية والدرقاوية لم تتأثر كثيرا ولم تختفي من حياة الجزائريين كما كانت تنتظر وتعتقد، وهذا ما جعل جول كامبون Jules Cambon الذي عين في منصب حاكم عام للجزائر سنة 1305هـ/1891م، يقرر خلال فترة حكمه التي دامت ست سنوات ونصف، إتباع سياسة التهدئة مع الطرق المصنفة عدوة والتقرب منها، والعمل على استمالة زعمائها وشيوخها[4]، لاسيما وأن هذه السياسة قد نجحت مع بعض الطرق خلال العقد الثاني من الاحتلال.

فقد تمكنت السلطة الفرنسية من استمالة محمد الصغير التجاني شيخ الطريقة التجانية سنة 1258هـ/1844م[5]، وسي محمد بن سيدي بن عباس شيخ الزاوية القادرية بمنعة في جبال الأوراس سنة 1259هـ/1845م، الذي عينته في منصب القايد[6]، وأصبح بذلك يجمع بين وظيفتين إحداهما دينية صوفية والأخرى إدارية دنيوية، كما تمكنت أيضا من استمالة سيدي حمزة أو سي حمزة ـ كما يعرف ـ

---

(1) ينظر: **A.O.M (G.G.A) 16H60**.

(2) التليلي العجيلي، **المرجع السابق**، ص.245

(3) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.4، ص–ص.325–26.

(4) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.4، ص–ص.327–328

(5) إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837–1934**، ص–ص.102–103

(6) Abd Elhamid Zouzou, **op.cit**, T.1, p.219

كبير أولاد سيدي الشيخ، وقلدته وظيفة خليفة سنة 1264هـ/1850م[1]، وأصبح بذلك من أوائل زعماء التيار الصوفي الذين يتقلدون وظيفة رسمية لدى السلطة الفرنسية، واستمالت أيضا سي عزيز بن الشيخ الحداد وقلدته وظيفة إدارية ومنحته وساما فكان يحمل السبحة في عنقه والوسام على صدره[2]، وهذا قبل أن ينقلب على هذه السلطة وينظم إلى صفوف المجاهدين أثناء ثورة المقراني سنة 1285هـ/1871م.

حاول جول كامبون Jules Cambon جاهدًا ربط علاقات ودية مع أكبر الطرق الصوفية في الجنوب الجزائري، كالطريقة الطيبية والشيخية والقادرية، فبادر منذ سنة 1305هـ/1891م إلى استضافة شيخ الزاوية الطيبية، مولاي عبد السلام وابنه مولاي العربي، كما تمكن سنة 1306هـ/1892م من التحالف مع سيدي قدور زعيم أولاد سيدي الشيخ المنشقين[3]، وتفاوض مع الشيخ بوعمامة وهو من أولاد سيدي الشيخ، وعرض الوظائف على أغلب زعماء الطرق الصوفية لاسيما الدرقاوية والرحمانية، وسلم لرؤساء هذه الطرق وغيرها برانيس وأوسمة، وحرص على إقامة احتفالات تأبينية لمن يموت منهم كالذي أقامه لسيدي أحمد التجاني والشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم الهاملي[4]، وفي الكلمة التأبينية التي ألقاها في الحفل التأبيني لسيدي أحمد التجاني، نوّه بإخلاص هذا الأخير للدولة الفرنسية ووقوفه إلى جانبها، كما نوّه بالطريقة التجانية عامة التي لم ينقطع إخلاصها ــ على حد تعبيره ــ لفرنسا[5].

1 ـ 5 ـ 3: الجوسسة على الطرق الصوفية:

لقد جندت السلطة الفرنسية الجوسسة منذ وقت مبكر لتحقيق مآربها، فنشطت مخابراتها نشاطا ملحوظا لاسيما على عهد بيجو Bugeaud أين أصبحت المكاتب العربية عبارة عن خلايا جوسسة تتلقى التقارير، وتتسمع في الأسواق وغيرها من الأماكن العامة على الجزائريين وتلتقط أسرار وتحركات رجال المقاومة الوطنية، وتحاول معرفة كلمات السر عندهم وعند الطرق الصوفية[6]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل استطاعت هذه السلطة أن تزرع جواسيسها في صفوف بعض الطرق فكانوا ينقلون لها كل كبيرة وصغيرة عنها، وعن ما يدور في مجالسها.

---

[1] س. ترومللي، **المصدر السابق**، ص.121

[2] ينظر: **ملحق رقم (38)**.

[3] شارل روبير أجرون، **الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871–1919**، جـ.1، ص.918

[4] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ.4، ص.328

[5] A.O.M (G.G.A) 16H49.

[6] أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، جـ.1، ص–ص.235–236

فقد اخترقت صفوف الأمير عبد القادر وزرعت جاسوسها ليون روش Léon Roches الذي تظاهر باعتناقه للدين الإسلامي، وادعى أن مسلمي الجزائر قد أطلقوا عليه اسم عمر، وكان ينقل لها من معسكر الأمير عبد القادر أسراره العسكرية والإستراتيجية، بل وأسراره الشخصية أيضا[1]، وتمكنت أيضا من إيقاع بعض شيوخ الطرق الصوفية في زيجات الزواج من الفرنسيات اللواتي أصبحن بمثابة أعينها على هؤلاء الشيوخ، وعلى طرقهم ومريديهم.

وكان جواسيس السلطة الفرنسية ينتشرون في كل المناطق والبقاع بما في ذلك الدول المجاورة كالمغرب وتونس، وكانوا يمدونها بكل المعلومات عن تحركات أتباع الطرق الصوفية في هذه البلدان، وعن علاقاتهم بإخوانهم وأتباعهم في الجزائر، وكانت التقارير تصل بصورة دورية إلى رؤساء المكاتب العربية وممثلي السلطة الفرنسية هنا في الجزائر من قبل هؤلاء الجواسيس، الذين هم في أغلبهم من أتباع بعض الطرق الصوفية كالشابية[2].

والأرشيف الفرنسي بمدينة مارسيليا يحتفظ لنا بعدد هائل من هذه التقارير التي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، التقرير الذي بعث به سنة 1313هـ/1899م المسمى أحمد بن محمد الشابي إلى الحاكم العسكري بعمالة قسنطينة، ويتضمن معلومات عن شخص يبدو أنه من أتباع الطريقة الشابية يدعى الحاج محمد بن إبراهيم الشابي، وهو من توزر الجريد بتونس، وهذه المعلومات تتحدث عن سفر هذا الشخص في تلك الفترة من مقر سكناه بتوزر إلى وادي سوف في الجنوب الجزائري، بقصد أخذ الزيارات وإعطاء الأوراد، وبعد ذلك يتوجه إلى جبال ششار في خنشلة، وإلى عرش النمامشة في تبسة لذات الغرض وهو مرفوق بمقدمين وشواش ليعطوا الطريقة، ويضربون وراءه البندير ويتجمع حوله الناس، فيلقي عليهم الأخبار غير اللائقة ويخوض معهم في أمور الديانة، وقد جعل خراجًا على الأعراش المذكورة سابقا يستخلصه منهم كل سنة[3].

وهناك أيضا تقرير آخر بعث به المدعو بنجد بن الحاج الشابي مقدم الطريقة الشابية في توزر بتونس ـ كما ورد في التقرير ـ إلى الحاكم العسكري الفرنسي بعمالة قسنطينة، يطلعه فيه عن دخول نفر من توزر إلى جبل ششار في خنشلة بالجزائر، ويطلب منه أن يعتقلهم ويسجنهم كما وعده أثناء اللقاء الذي جمعهما

---

(1) يوسف مناصرية، **المرجع السابق**، ص-ص.26-27

(2) كان أتباع الطريقة الشابية الذين وظفتهم السلطة الفرنسية كجواسيس لصالحها يقدمون معلومات في بالغ الأهمية عن إخوانهم في الطريقة التي ينتمون إليها.

(3) ينظر: **ملحق رقم (21)**.

في سوق أهراس بالجزائر. وهؤلاء النفر هم: سعيد بن عمار الشابي، محمد بن بلقاسم الشابي، بلقاسم بن حامد الشابي، بورقعة بن سعيد الشابي[1].

1 ـ 5 ـ 4: ضغضغة وحدة الطرق المقاومة:

بعد أن تمكنت السلطة الفرنسية من التغلغل إلى عمق الخلافات التي كانت سائدة بين مختلف الطرق الصوفية، واستغلتها وفرقت بينها بعد أن سلطت بعضها على بعض، وسمحت لها ببسط نفوذها بسخاء شريطة أن تقف إلى جانبها وتروج للمشروع الفرنسي في الجزائر[2]، انتهجت سياسة جديدة ضد هذه الطرق تقوم على تفتيتها وتشتيتها، وإضعافها والاستفادة منها دون إنهاء وجودها أو مواجهتها[3]، لذلك لجأت إلى ضغضغة وحدة كل طريقة تعتقد أنها خطيرة على وجودها، بجعلها تتفرع إلى فروع، وعدم تبعية فروعها إلى قيادة موحدة أو شيخ واحد تكون سلطة القرار في يده دون غيره سواء في الحرب أو السلم. وكان ذلك هو مصير أغلب الطرق التي رفعت راية المقاومة والجهاد في وجه المحتل بمجرد أن وطأت قدماه أرض الجزائر، لاسيما القادرية والدرقاوية والرحمانية[4].

وعليه شهد عقد الثمانينات والتسعينات من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي نموًا سريعًا في عدد الزوايا المستقلة[5]، لاسيما التابعة للطريقة الرحمانية التي قال عنها المختصون الفرنسيون أنها قد تمزقت إلى 25 فرعا، لكل فرع شيخ مستقل لا يعترف بالآخر رغم الأصل الواحد لجميع هذه الزوايا وهو زاوية آيت إسماعيل التي خربها الجيش الفرنسي سنة 1271هـ/1857م والمبادئ الواحدة. ومن هذه الفروع نذكر:

- فرع الهامل، وشيخه محمد بن أبي القاسم.
- فرع طولقة، وشيخه علي بن عثمان.
- فرع وادي العثمانية، وشيخه ابن الحملاوي.
- فرع أقبو، وشيخه محمد بن أبي القاسم البوجليلي.
- فرع نفطة (تونس)، وشيخه مصطفى بن عزوز البرجي.
- فرع وادي سوف، وشيخه سالم بن محمد الأعرج السالمي.

---

[1] ينظر: **ملحق رقم (22)**.

[2] Abd Ehhamid Zouzou, **op.cit**, T.2, p, p.777, 779

[3] محمد الأمين بلغيث، **المرجع السابق**، ص.307

[4] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ.4، ص.31

[5] خير الدين شتره، **المرجع السابق**، جـ.1، ص.390

- فرع قسنطينة، وشيخه محمد السعيد باش تارزي.

إضافة إلى فروع أخرى كانت في خنقة سيدي ناجي، وخيران، وأتباع ابن طلحة في السمندو، وأتباع عمارة بوديار بالناظور[1].

2 ـ موقف الطرق الصوفية من السياسة الفرنسية تجاه اللغة العربية ومقومات الهوية الوطنية:

يدرك أغلب الباحثين أن إهمال السلطة في الجزائر للثقافة بوجه عام وللعلم والتعليم بوجه خاص خلال القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، لم يبدأ مع استيلاء الاحتلال الفرنسي على الحكم فيها، وإنما حدث ذلك على عهد الأتراك العثمانيين الذين لم يولوا هذا الجانب أي أهمية، ولم يخصصوا لا وزارة ولا إدارة للتعليم وأصلاً لم تكن لهم أي سياسة تعليمية[2]، إلا أن عزل اللغة العربية كمركز للحضارة الإسلامية، وكإحدى مقومات الثقافة العربية الإسلامية بدأ مع بداية الغزو الفرنسي للجزائر، وتطورت الوسائل والأساليب والإجراءات ضد اللغة العربية مع إحكام المحتل قبضته على المرافق الحيوية في البلاد[3].

فقد وضعت إدارة الاحتلال يدها على الأوقاف الإسلامية، وصادراتها، وقضت على دورها وهي التي كانت المورد الأساسي للتعليم، وهدَّمت أغلب المؤسسات الدينية والتعليمية التابعة لها، لاسيما المساجد والمدارس[4]، فَأَهْمِلَ التعليم الوطني وانحصر نشاطه في بعض المساجد والزوايا الواقعة في المناطق النائية أو الجبلية والصحراوية البعيدة عن مراكز الاحتلال[5]، بل حتى الزوايا الصوفية التي كانت أحد شرايين الثقافة والتعليم ومعقلاً من معاقل اللغة العربية امتدت إليها يد السلطة الفرنسية المتغطرسة، فأوقفتها عن مهامها التعليمية وعن عملية نشر اللغة العربية بين الأهالي[6].

---

(1) Octave Depont et Xavier Coppolani, **Op.cit**, p.247

(2) أبو القاسم سعد الله، « لوحة عن نظام التعليم بالجزائر في العهد العثماني »، **سلسلة الملتقيات**، أعمال الملتقى الوطني الأول حول التعليم في الجزائر أثناء الاحتلال 1830–1962، عنابة 14–15 جوان 2009، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2011م، ص.18

(3) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج.5، ص.160

(4) عبد الحميد زوزو، **الثقافة والتعليمان الحر والرسمي في العهد الفرنسي**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2017م، ص.13

(5) إبراهيم مهديد، **القطاع الوهراني ما بين 1850 و1919 (دراسة حول المجتمع الجزائري، الثقافة والهوية الوطنية)**، منشورات دار الأديب، وهران– الجزائر، 2006، ص.19

(6) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج.5، ص.160

لكن التيار الصوفي الذي كان يشرف على أغلب المؤسسات التعليمية لاسيما في المناطق النائية كالأرياف والجبال والبوادي، لم يستسلم للأمر الواقع وبقي يناضل بكل ما أوتي من قوة من أجل أن يظل التعليم منتشرًا بين الجزائريين، واستطاع أن يجعل الجزائر تحافظ على تقاليدها العربية، الأمازيغية الإسلامية في التعليم والثقافة، فالمساجد والزوايا والكتاتيب القرآنية كانت منتشرة في كثير من المناطق والتعاليم الدينية متوفرة، ولم تزل الزوايا بالقرى جامعة للمشايخ والطلبة وكلهم يبذلون جهودهم في الإلمام بالعلوم ونشرها بين الجماهير، فهناك الدروس الدينية وحلقات الذكر والمدائح الدينية وانتشار الأوراد الصوفية وغيرها، وبهذا الشكل ما استولى الجهل على الجزائر، وما انقطعت بالجزائر مسيرة التعليم وما انعدمت المدارس، ولا قلت العناية باللغة العربية وعلومها وآدابها[1].

يقول كمال بوشامة (في ظل تلك الزوايا المتعددة وتحت الإدارة المستنيرة لتلك الوجوه النيرة، تم الدفاع عن اللغة العربية بأقصى طاقة ممكنة وتواصل تعليمها وسط الجماهير برغم المحاولات الكبيرة للاستلاب وحملات النفي)[2].

وقد أدى اهتمام التيار الصوفي بتعليم وتثقيف الجزائريين إلى ازدياد تشبث الناس بالتصوف، لكونهم ينظرون إليه على أنه مؤسس على الكتاب والسنة، قائم على سلوك الأنبياء والأصفياء[3]، وهو المؤسسة الوحيدة المتبقية من النظم القديمة القائمة خلال القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، بعد أن قضى الاحتلال على كل شيء، وانحلت عرى الدولة والجيش، وتفككت أوصال المجتمع بسبب الحروب، والتشريد، والتهجير، وشلت وظائف المؤسسات الدينية والتعليمية، وصودرت الأوقاف الإسلامية، لكن الزوايا الصوفية ظلت قائمة في المناطق النائية كالأرياف والجبال والصحاري، تؤدي دورها الديني والتعليمي والجهادي[4].

وقد شجع تشبث الجزائريين بالتصوف أتباع التيار الصوفي على مواصلة بذل المجهود من أجل نشر التعليم عبر مناطق مختلفة من الوطن، لاسيما بعد أن تغاضت سلطة الاحتلال سنة 1274هـ/1860 عن بعض الزوايا الصوفية، وتركتها تعلم اللغة العربية وآدابها لطلبتها[5]، ومن هذه

---

(1) إبراهيم مياسي، **لمحات... من جهاد الشعب الجزائري**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص.212

(2) كمال بوشامة، **الجزائر أرض عقيدة وثقافة**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص.153

(3) يقال: « التصوف مبني على ثمان خصال: السخاء، والرضا، والصبر، والإشارة والغربي، ولبس الصوف، والسياحة، والفقر». يراجع: إبراهيم مياسي، **لمحات... من جهاد الشعب الجزائري**، ص.212

(4) أبو القاسم سعد الله، **أفكار جامحة**، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ط.2، 2005م، ص.25

(5) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج.5، ص.161

الزوايا نذكر الزاوية القاسمية بالهامل التي اعتبرها كثير من المؤرخين والباحثين منارة علمية، ومعلمًا أساسيا في تاريخ التعليم العربي في الجزائر، ساهمت في الحفاظ عليه، وأعطته دفعة قوية بعد أن كاد يختفي بسبب محاصرة ومحاربة المحتل الفرنسي له[1]، ونذكر أيضا الزاوية العثمانية بطولقة قرب بسكرة، وزاوية ابن أبي داود في بلاد القبائل أو زواوة[2].

بقيت هذه الزوايا وغيرها الملجأ الوحيد والأخير لتعليم الأهالي في الجزائر، فقال ليون بيكي Lyon Biké عضو لجنة مجلس الشيوخ الفرنسي التي جاءت للاطلاع على أحوال الجزائريين سنة 1305هـ/1891م (إن التعليم في الجزائر الآن [1305هـ/1891م] قائم تحت إشراف الأهالي أنفسهم والزوايا، حيث يتعلم فيها التلاميذ القرآن وتفسيره، وهي المؤسسة التعليمية الوحيدة في المستعمرة)[3].

وقد أثمرت جهود الزوايا الصوفية، والتيار الصوفي بشكل عام نتائج جيدة قد لا نجد لها مثيلاً، وذلك بالحفاظ على الهوية والشخصية الوطنية وثوابتها الأساسية: الدين، اللغة، العادات، والتقاليد، وكذلك بتكوين أجيال عديدة من المتعلمين المتنورين المحافظين[4]، المثقفين بالثقافة العربية الإسلامية الذين ساعدتهم الروح العصامية والتحدي على الوصول إلى درجة راقية من العلم، نذكر منهم أبو القاسم الحفناوي (1269هـ/1852م–1360هـ/1943م) صاحب كتاب تعريف الخلف برجال السلف[5]، حميدة بن الطيب الجزائري (1288هـ/1871م–1362هـ/1944م) من كبار مدرسي الحرم المدني، فقيه وقاض وأديب وشاعر، محمد الصغير المختار الجلالي (توفي سنة 1337هـ/1920م) شيخ زاوية أولاد جلال بالقرب من بسكرة[6].

وبفضل الإنتاج العلمي الغزير لأتباع التيار الصوفي، واهتمام شيوخ الزوايا الصوفية وطلابها بالتأليف وجمع الكتب عن طريق شرائها أو نسخها ونقلها، وما إلى ذلك من وسائل الاقتناء[7]، أصبحت

---

(1) محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر وثورتها المباركة**، المطبعة التعاونية، دمشق– سوريا، ط.1، 1964، جـ.1، ص.34

(2) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، جـ.5، ص.161

(3) نقلا عن: رابح تركي، **الشيخ عبد الحميد بن باديس**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط.3، 1981، ص.12

(4) عبد المنعم القاسمي الحسني، **زاوية الهامل مسيرة قرن...**، ص.164

(5) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، جـ.5، ص.162

(6) عبد المنعم القاسمي الحسني، **زاوية الهامل مسيرة قرن...**، ص– ص354–357

(7) من بين وسائل الاقتناء التكفل بطبع ونشر بعض الكتب، كما فعل شيوخ الزاوية القاسمية بالهامل، أين تكفلوا بطبع ونشر عدة كتب، أهمها المنح الربانية لباش تارزي القسنطيني، طبع في تونس عام 1304هـ/1890م، والزهر الباسم للقاسمي الذي طبع هو الأخر في تونس عام 1305هـ/1891م. يراجع: منير القاسمي الحسني، **زاوية الهامل التاريخ المصور**، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، المسيلة– الجزائر، 2007، ص.65

مكتبات هذه الزوايا بمثابة مخازن، ودواوين لمختلف الكتب والمخطوطات العلمية في شتى أنواع العلوم والفنون والمعارف[1]. ففي أواخر القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي كانت مكتبة الزاوية القاسمية بالهامل تظم مجموعة من المخطوطات، تقدر بنحو ألف مجلد، نشرت فهرسة بعضها سنة 1311هـ/1897م بعناية المستشرق رينيه باسييه René Passier[2]، وكذلك الزاوية العثمانية بطولقة، كانت لها مكتبة ثرية ومتنوعة بمختلف الكتب والمخطوطات، وقد أسسها علي بن عثمان الذي تولى مشيخة الزاوية من 1256هـ/1842م إلى 1310هـ/1896م[3].

وقد أبت بعض هذه الزوايا، لاسيما تلك التي تتمتع بسمعة طيبة، وتتجاوز شهرتها القطر الجزائري كالزاوية القاسمية بالهامل إلا أن تجعل من برنامج التعليم فيها شبيه أو مستنسخ عن ما هو موجود أو معمول به في جامع الزيتونة والقرويين وأمثالهما، فهناك مراحل ومستويات من الابتدائي إلى الدروس العالية، وهناك دورات انتقالية، والعلوم المتداولة هي علوم الشريعة، واللغة العربية وآدابها، بالإضافة إلى علم الفلك والحساب والمنطق، والكتب المقررة تكاد تكون واحدة[4].

وهذا ما مكن بعض الطلبة المتخرجين من هذه الزوايا، من الهجرة في طلب العلم خارج الجزائر، فقصدوا الزيتونة أو القرويين، ومنهم من قصد الأزهر الشريف أو بلاد الشام والحجاز، وقد استطاعوا بعزيمتهم أن ينالوا مبتغاهم، ويبلغوا درجات راقية من العلم، ويعودوا بعد ذلك إلى الجزائر ليساهموا بدورهم في تحرير وتنوير عقول إخوانهم الجزائريين[5].

وبالرغم من المجهودات الجبارة التي بذلتها الزوايا الصوفية من أجل النهوض بالتعليم العربي الإسلامي، وتطويره ونشره بين الأهالي، في الوقت الذي كان فيه الجهل يسيطر ويهيمن على عقول أغلب الجزائريين، إلا أنه ظل تعليمًا تقليديا يقتصر على العلوم الشرعية والإنسانية، واللغة العربية وآدابها، وبأساليب عتيقة ومناهج متخلفة، لا تتلاءم مع التطورات الحديثة التي صحبت النهضة الأوروبية الحديثة. يقول عبد الله ركيبي (بقي نوع آخر من التعليم وهو الخاص بالزوايا، والذي يرجع إليه الفضل في الحفاظ على اللغة العربية وعلومها، وهو تعليم كان يسير على المناهج القديمة التي تعطي الأولوية لعلوم اللسان

---

(1) يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، جـ.1، ص.238

(2) منير القاسمي الحسني، **المرجع السابق**، ص.65

(3) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ.3، ص.215

(4) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ.3، ص.222

(5) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، جـ.5، ص.162

والدين... وتتلخص طرق هذا النوع من التعليم في تحفيظ القرآن وقراءته ثم حفظ المتون ـ متون النحو والصرف ـ والفقه والتوحيد)[1].

وعلى رأي أبو القاسم سعد الله، فالأوروبيون وظفوا علمهم في الحياة العلمية، وكان المتعلمون منهم رغم قلة عددهم علماء في مختلف العلوم التطبيقية، كالكيمياء والفيزياء والرياضيات والهندسة، بينما لم يوظف الجزائريون علمهم إلا في الدين والأدب، رغم أن التعليم كان شائعًا بين أغلبهم، (وقد ثبت في الميدان الفرق بين علمنا وعلمهم عند المواجهة التي حدثت بين الاحتلال والمقاومة)[2].

لكن إن كنا أسهبنا في الحديث عن دور الزوايا الصوفية في التعليم، فهذا لا يعني أنها المؤسسة الصوفية الوحيدة التي كان لها دور في هذا المجال بل هناك مؤسسات صوفية أخرى ساهمت هي الأخرى في تعليم وتثقيف الجزائريين في تلك الفترة، لكن بدرجة أقل من الزوايا، إذ أن دورها كان يقتصر إما على تحضيرل وتهيئة الفرد لولوج تلك الزوايا، أو أن دورها لا يعدو أن يكون إلا دور توعوي وتثقيفي، وهذه المؤسسات هي الكتاتيب والمساجد.

فبالنسبة للكتاتيب فهي عبارة عن مجمعات من البيوت مختلفة الأحجام والأشكال، وقد تكون في بعض الأحيان بيوت منفردة[3]، بسيطة المظهر والمبنى، قليلة الإمكانيات المادية لكون أغلب مؤسسيها الذين هم من حفظة القرآن الكريم، ينتمون إلى الطبقة الفقيرة جدًا والكادحة، وقد أسسوها لكسب لقمة العيش من خلال تحفيظ القرآن الكريم فيها للأطفال وترتيله لهم[4]، ولكونها عمل من أعمال البر والإحسان التي تقربهم إلى الله عزّ وجل، وأيضا لتجنيب المساجد أوساخ الأطفال وضوضاءهم والاحتفاظ بطهارتها ونقاوتها[5].

وقد انتشرت هذه الكتاتيب في جميع المدن والقرى الجزائرية بصورة لا نظير لها[6]، لاسيما في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، كأسلوب ووسيلة للحفاظ على الشخصية الوطنية،

---

(1) عبد الله ركيبي، **الشعر الديني الجزائري الحديث**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص.30

(2) أبو القاسم سعد الله، « لمحة عن نظام التعليم بالجزائر في العهد العثماني »، ص.21

(3) يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، ج.1، ص.212

(4) عبد النور خيثر وآخرون، **منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954**، سلسة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، المطبعة الرسمية، الجزائر، 2007، ص.80

(5) يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، ج.1، ص.212

(6) أحمد توفيق المدني، **المرجع السابق**، ص.90

ومقاومة سياسة التجهيل والفرنسة، وسياسة التنصير والتمسيح التي كانت تتبعها إدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر[1].

ورغم انعدام الظروف الصحية في أغلب هذه الكتاتيب بسبب ضيقها، وقلة التهوية فيها، بالإضافة إلى كونها معتمة، وكان الأطفال يحشرون فيها حشرًا دون مراعاة أدنى قواعد الصحة، والنار توقد لتدفئتهم بدون انتظام، وقليل من العناية كانت تعطى لمياه شربهم وحماماتهم، إلا أنها كانت تؤدي وظيفة المدرسة الابتدائية، فهي تقوم بتحفيظ القرآن الكريم للأطفال، وتعلمهم مبادئ العلوم والقراءة والكتابة، وتثقفهم ثقافة عربية إسلامية، وتربيهم تربية إسلامية، وتعطيهم رصيدًا من المعارف[2]، التي تساعدهم على الانتقال إلى مراحل أعلى من التعليم، وفي مؤسسات أرقى من الكتاتيب وهي الزوايا.

أما عن طريقة التدريس في الكتاتيب، فقد كانت تتم بالشكل التالي: يجلس الأطفال ذكورًا وإناثا من مختلف الأعمار على الأرض فوق الحصائر والسجاجيد، ويلتفون حول معلمهم أو مؤدبهم في شكل دوائر نصفية، فيملي عليهم آيات أو بعض السور القصيرة من القرآن الكريم، ويقومون بتدوينها بأقلام من القصب وصمغ مصنوع من الصوف المحروق على ألواحهم الخشبية، ثم يتدربون على قراءتها قراءة أولية، وبعدها يتلونها ويقرؤونها بأصوات جَهُورِيَّة حتى إذا حفظوها يقومون بمحوها في صباح اليوم الموالي، ويكتبون غيره وهكذا بصفة دورية ودائمة، حتى يتسنى لهم حفظ كل سور وأحزاب القرآن الكريم وعادة ما كان التعليم يتم في الصباح من الخامسة والسادسة حتى العاشرة، وفي المساء من الساعة الثالثة عشر إلى السابعة والثامنة عشر، مع راحة في الوسط قبل صلاة العصر[3]، ومن النادر أن لا يلتحق الأطفال وهم في السنوات الأولى من عمرهم، بأحد الكتاتيب لحفظ القرآن الكريم أو جزء منه، وتعلم القراءة والكتابة[4].

وفيما يتعلق بالمساجد فهي الأخرى لا تقل أهمية عن الزوايا والكتاتيب في مجال التعليم والثقافة، بل في بعض الأحيان، وفي بعض المناطق تكاد تتصدر الطليعة برفقة الزوايا في هذا الميدان، فهي من المؤسسات الدينية التعليمية والثقافية التي أدت دورًا ايجابيا وبارزًا في الحفاظ على الشخصية الوطنية الجزائرية من التفسخ والذوبان والانصهار في ركب الحضارة الغربية العلمانية، التي جاء بها المحتل

---

[1] يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، جـ.1، ص.212

[2] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ.1، ص-ص.278-279

[3] يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، جـ.1، ص-ص.212-213

[4] جمال قنان، **التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار 1830-1944**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، دار هومة، الجزائر، 2007، ص.14

الفرنسي وعمل كل ما في وسعه لغرسها في نفوس وعقول الجزائريين، رغم أنها مجردة من كل الأخلاق الدينية والإنسانية، ومن جميع الأعراف البشرية.

ففي هذه المساجد كانت تعطى الدروس التعليمية لطلبة العلم، وتلقى دروس الوعظ والإرشاد[1]، وخطب الجمعة والأعياد على جموع المصلين باختلاف أعمارهم ومستوياتهم، وفيها كانت تقام وتُحيا المناسبات الدينية كالاحتفاء بليلة القدر، والمولد النبوي الشريف وغيرهما. فقد كانت ملتقًا للعباد ومجمعًا للأعيان، ومنشطة للحياة العلمية والاجتماعية[2]، وهي قلب الزوايا الصوفية وابرز هياكلها، ومحور أنشطتها الداخلية، والمركز الذي يجتمع فيه كل المقيمين بها أثناء أدائهم للصلوات المفروضة، وهي تتوسط الزوايا لما تحتله من أهمية كبرى في حياتها الروحية والدينية والعلمية، وتحتضن طلبتها في البداية قبل أن تتوسع، وتبقى كذلك إلى أن تكتمل مرافقها، فتنتقل المهام التي كانت تؤدى في هذه المساجد كالتدريس مثلاً إلى المرافق الجديدة للزوايا، ويقتصر دور المساجد بعد ذلك على أداء الصلوات المفروضة فيها، وإقامة الشعائر الدينية التي تشتهر بكثرة الحضور من الناس[3]، وقد كانت هذه المساجد بقببها الجميلة الدائمة البياض بالجير هي أبرزها ما يميز الزوايا عن غيرها من الأبنية الأخرى، ويلفت إليها انتباه ونظر عابري السبيل من مسافات بعيدة[4].

ويمكن القول لو لا هذه الزوايا ومرافقها التي اضطلعت بأدوار تعليمية وتثقيفية كبيرة خلال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، لنجح المشروع الفرنسي القائم على سياسة التجهيل والفرنسة في الجزائر، ولفعل الجهل أفاعليه بكل الجزائريين، ولما برز عدد كبير من العلماء وشيوخ التصوف الذين ذاع صيت بعضهم في أرجاء العالم العربي، وربما الإسلامي، واضطلعوا بأدوار علمية وثقافية مختلفة، كالأمير عبد القادر والشيخ الحداد الزعيم الروحي لثورة المقراني سنة 1285هـ/1871م، وعلي بن عمر شيخ الزاوية العثمانية بطولقة، والمختار بن خليفة الجلالي شيخ زاوية أولاد جلال ببسكرة ومحمد بن أبي

---

(1) عبد المنعم القاسمي الحسني، **زاوية الهامل مسيرة قرن...**، ص.146

(2) سعيدي مزيان، **النشاط التنصيري للكاردينال لافيجري في الجزائر1867-1892**، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط.1، 2009م، ص389

يرى أبو القاسم سعد الله أن وظيفة المساجد في ميدان التعليم قد اختلطت بوظيفة الزاوية والمدرسة أحيانا، فقد كانت بعض المساجد والزوايا تؤدي وظيفة المدرسة في نشر التعليم بجميع أنواعه، وكانت بعض الزوايا مدارس. يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.279

(3) عبد المنعم القاسمي الحسني، **زاوية الهامل مسيرة قرن...**، ص.146

(4) هانوتو ولوتورنو، **منطقة القبائل الكبرى: العادات القبائلية التنظيم السياسي والإداري**، ترجمة مزيان الحاج أحمد قاسم، منشورات كرجا للنشر والتوزيع، تيزي وزو- الجزائر، 2013، ص.132

القاسم الهاملي مؤسس زاوية الهامل ببوسعادة ولاية المسيلة، وغيرهم من الشيوخ والعلماء الأجلاء وهم كثيرون.

يؤاخذ بعض الباحثين على التيار الصوفي ميله لحياة العزلة وبثه لروح الكسل والخمول، والتواكل بين الناس، ونشره للبدع والخرافات والشعوذة، وأعمال الشرك بالله كالتبرك بقبور الأولياء، وعدم الجد في أمور الدين والدنيا، وعدم الأخذ بأسباب العلم المؤسس على كتاب الله تعالى وسنة نبيه المصطفى الكريم في مواجهة أعداء الدين الإسلامي، فكان حسب اعتقادهم سببًا في تعطيل بعض الأحكام الشرعية، وسببًا في تشويه العقيدة الإسلامية وانحراف الناس عن الدين القويم لاسيما في فترة الاحتلال الفرنسي.

إلا أننا نعتقد أن أتباع التيار الصوفي وشيوخه لم يكونوا كلهم ممن انتقدهم الباحثون هنا، إذ أن جزء كبير منهم كانت لهم مواقف ايجابية، و كان لهم دور بارز في مختلف مظاهر الحياة الدينية طيلة القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، ولم يكونوا في عزلة عن الناس، فقد كانوا في مقدمة الدعاة إلى شرع الله، وكانوا يبصرون الناس بما ينفعهم ويحذرونهم مما يضرهم[1].

وقد اهتموا بتحفيظ القرآن الكريم لمختلف شرائح المجتمع الجزائري، وعملوا على نشره بصورة مكثفة ومتواصلة بينهم لكي يحموه من النسيان والضياع والاندثار، فكان أغلب الجزائريين باختلاف مناطق سكناهم يحفظونه كله أو جله أو بعض أجزائه عن ظهر قلب، ويطبقون تعاليمه الدينية والدنيوية، خاصة ما تعلق منها بالأخلاق والسلوك العامة، الذاتية والجماعية[2]، وبذلوا جهودًا كبيرة وجبارة في كل الظروف والأوقات، وبمختلف الأساليب والوسائل والإمكانيات من أجل حماية الشخصية الإسلامية، والوجه العربي الإسلامي للجزائر وشعبها من سياسة الفرنسة والتنصير والكثلكة[3]، التي انتهجتها إدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، وكان ذلك خيرًا وبركة على هذه البلاد وشعبها المتمسك بإسلامه وعروبته[4]، وأمازيغيته وعاداته وتقاليده المستمدة في أغلبها من دينه الحنيف، وفي هذا الصدد يقول خير الدين شترة: (لا يخفى على الباحث أن الطرق الصوفية في الجزائر بمختلف أطيافها وأسمائها، وبحكم التركيبة الاجتماعية

---

[1] عبد النور خيثر وآخرون، **المرجع السابق**، ص.30

[2] يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، جـ.1، ص.236

[3] للمزيد من المعلومات عن سياسة الفرنسة والتنصير، وعن محاربة فرنسا للثقافة العربية الإسلامية ومحاولتها تشويه التاريخ الجزائري يراجع: صالح بن نبيلي فركوس، **الوجيز في تاريخ الثقافة الجزائرية من العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال (814 ق.م – 1962م)**، المعارف للطباعة، د.ب، 2015، ص-ص.180-186

[4] يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، جـ.1، ص.240

والدينية التي تتألف منها الطريقة قد لعبت دورًا بارزًا في صد الكيان الاستعماري ومحاربة وإفشال خططه الاستعمارية، خاصة ما تعلق منها بالمقومات الدينية والوطنية...)[1].

وبما أن الثقافة الروحية هي مادة التيار الصوفي عبر مختلف الأزمنة، وفي كل مراحل تاريخه، فقد اهتم بالتربية الروحية والأخلاقية وهذا ما جعله يتمتع بمكانة اجتماعية رفيعة بين الجماهير الشعبية، حيث ركز في أدبياته وسلوكياته على التربية الروحية موازاة مع التربية الأخلاقية لارتباطهما ببعضهما البعض فلا حياة روحية بدون حياة أخلاقية[2]، وهذا ما لمسناه جليًا في معظم الطرق الصوفية الممثلة لهذا التيار كالقادرية، والرحمانية والسنوسية، وما ورد في كتب الصوفية يعتبر من صلب التحوير العقلي الذي جاء التيار الصوفي ليمارسه على الشعوب الإسلامية برمتها، تسديدًا وتوجيهًا لها نحو الإصلاح كمحاربة عبادة الأوثان، وتحريم استخدام السحر واللجوء إلى الكهنة والمشعوذين[3].

ويبدو أن شيوخ التيار الصوفي الذين ينتهجون في تصوفهم سبيل الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح، يدركون أن فساد العقيدة لدى المسلمين، قد أدى إلى تفسخ الأمة وفقدان فعاليتها، فعملوا كل ما في وسعهم لإصلاح عقائد الناس لأن ذلك من متطلبات نهضتهم التي ستساعدهم على التحرر من الهيمنة الاستعمارية، وهذا ما قام به شيوخ الطريقة السنوسية في كل المناطق التي انتشرت فيها طريقتهم[4].

وقد كان معظم شيوخ التيار الصوفي من ذوي التأصيل الديني القائم على الشريعة الإسلامية، وإن كانوا يميلون أكثر إلى الحياة الروحية الصوفية، ومن ثم إلى التسامح الذي نلمسه في سلوكياتهم تجاه شرائح المجتمع الجزائري، ومع غير الجزائريين انطلاقا من القيم الإنسانية والروحية القائمة على التعامل الخير بين كل الناس[5]، وبفضل هذا التسامح تمكنوا من اختراق عقول وقلوب كثير من الناس، بما فيهم غير المسلمين الذين جعلوا بعضهم يعتنقون الإسلام من خلال انتسابهم لإحدى الطرق الصوفية، مثلما فعلت الصحفية الفرنسية من ذوي الأصول الروسية إيزابيل إبرهارت Isabelle Eberhart[6]، التي

---

(1) خير الدين شترة، **المرجع السابق**، جـ.2، ص.282

(2) أحلام عابد حسين البرواري، **التصوف في بلاد الشام ومصر خلال العصر الأيوبي 567-648هـ/1250-1171م**، دار دجلة ناشرون وموزعون، المملكة الأردنية الهاشمية، ط.1، 2016م، ص-ص.142-143

(3) خير الدين شترة، **المرجع السابق**، جـ.2، ص.45

(4) محمود براهم، **المرجع السابق**، ص.191

(5) أحميدة عميراوي، **بحوث تاريخية**، ص.104

(6) ولدت عام 1291هـ/1877م في جنيف بسويسرا، أمها تدعى ناتالي دوموردر أما الأب فهو مجهول، تعلمت التاريخ والفلسفة والآداب وغيرها من العلوم، بالإضافة إلى اللغة الروسية والفرنسية والألمانية والإنجليزية والعربية ثم التركية والأمازيغية. عملت

أسلمت على يد الشيخ محمد الهاشمي الشريف مؤسس الزاوية القادرية بوادي سوف سنة 1300هـ/1886م، واعتنقت الطريقة القادرية وأعطيت ذكر الطريقة، والسبحة، واللباس الخاص، وصامت رمضان[1].

هنا يتضح لنا أن زعماء التيار الصوفي وشيوخه، لم يكتفوا بالعمل من أجل الحفاظ على الدين الإسلامي، وإحيائه في نفوس الجزائريين فحسب، بل عملوا أيضا على نشره والدعوة له بين الأوروبيين داخل الوطن، وبين القبائل الإفريقية الوثنية خارج الوطن، فقد كانت لهم اليد الطولى في نشر فضائله وبث تعاليمه السامية، ونقله إلى مناطق نائية وثنية، وعرضه عرضًا خاليا من كل تعقيد أو تغليف، مما جعل بعض الأمم والشعوب الواقعة جنوب الصحراء، يدخلون في هذا الدين أفواجًا[2]، لدرجة أن صارت الجمعيات التبشيرية الأوروبية المنتشرة في القارة السمراء، تجد في هؤلاء الطرقيين وفي دعوتهم إلى الإسلام، خصمًا عنيدًا يصعب التغلب عليه رغم أن هذه الجمعيات تحظى بمساندة دولية، وتملك قوة مادية[3]. ولنا في شيوخ الطريقة القادرية، والتجانية، والسنوسية ودورهم في نشر الإسلام بين تلك القبائل الإفريقية الوثنية خير مثال على ذلك.

وكان أتباع التيار الصوفي في مقدمة العلماء الذين اضطلعوا بالمهمات الدينية كالإمامة والوعظ والخطابة والافتاء، ومن مشاهير التيار الصوفي في ذلك القرن نذكر:

- أحمد بن محمد المختار بن أحمد بن أبي بكر البكاي الكنتي، ولد سنة 1218هـ/1803م، أخذ العلم **باب ضعفه:**

الخاتمة:

بعد العرض لموضوع المداخلة " سياسة الاحتلال الفرنسي تجاه اللغة العربية والهوية الوطنية خلال القرن التاسع عشر الميلادي وموقف الطرق الصوفية منها " توصلنا إلى أهم النتائج التالية:

ـ سعت سلطة الاحتلال الفرنسي في الجزائر جاهدة لتحطيم مقومات الهوية الوطنية كاللغة العربية والدين الإسلامي والعادات والتقاليد العربية الإسلامية ليسهل عليها فرنسة الأهالي ومسخهم عن هويتهم.

كصحفية لعدة جرائد في باريس قبل مجيئها إلى الجزائر التي توفيت فيها عام 1318هـ/1904م. للمزيد من المعلومات عن حياتها يراجع: سبتي معلم، **إيزابيل إبرهارت اللغز الدائم**، مطابع ش. ذ. م. م عمار قرفي وأبنائه، باتنة- الجزائر، 2012

[1] أحميدة عميراوي، **رسالة الطريقة القادرية في الجزائر**، ص، ص.30، 41

[2] صلاح مؤيد العقبي، **المرجع السابق**، ص.84

[3] محمود براهم، **المرجع السابق**، ص-ص.189-190

. حاربت السلطة الفرنسية اللغة العربية وحاولت القضاء عليها لكونها لغة جامعة بين مختلف مكونات المجتمع الجزائري، وباعتبارها لغة الاسلام الذي كان سببا في افشال كل المشاريع الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وفي اجهاض التنصير والفرنسة والتجنيس والإدماج.

. سعت سلطة الاحتلال الفرنسي جاهدة لتجهيل الشعب الجزائري وإبعاده عن تراثه الديني والفكري من خلال محاولتها القضاء على الواقع الفكري والثقافي السائد في الجزائر منذ قرون خلت وهذا حتى يتحقق هدفها الاستعماري الاستيطاني.

. كان أكبر خطر واجهه الشعب الجزائري خلال فترة الاحتلال الفرنسي هو خطر اذابة الشخصية الجزائرية في المجتمع الأوروبي المستوطن وسلخها نهائيا عن انتمائها العربي الإسلامي من خلال عدة سياسات ومظاهر وأليات تمثلت في الحد من تعليم اللغة العربية، تغليب اللغة الفرنسية على حساب اللغة العربية، انتهاج سياسة التعليم الممنهج، التضييق على رجال الدين الإسلامي وشيوخ الطرق الصوفية، التضييق على الزوايا والكتاتيب لكونها تعمل على الحفاظ على اللغة العربية والدين الإسلامي.

ـ رغم التضييق الذي مارسته إدارة المحتل الفرنسي على الطرق الصوفية وعلى شيوخها وأتباعها إلا أن هذه الطرق استطاعت من خلال منشآتها ومؤسساتها لا سيما الزوايا أن تعمل على نشر اللغة العربية والحفاظ عليها من الاندثار، وتنشط الحياة الفكرية والدينية، ففي هذه الزوايا كانت تعقد حلقات الدروس في مختلف العلوم لا سيما الشرعية منها، ومن هذه الزوايا تخرج عدد كبير من العلماء وشيوخ التصوف الذين ذاع صيت بعضهم في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.